المدرسة الظاهراتية: التواصل والحياة الملموسة

محاضرة في مقياس أنثروبولوجيا الاتصال

د. باغور يمينة / جامعة تلمسان

التعريف بالمدرسة الظاهراتية:

المدرسة الظاهراتية (الفينومينولوجيا) هي تيار فلسفي ومنهجي يهتم بدراسة الظواهر كما تظهر في التجربة المباشرة والوعي الإنساني بعيدا عن الافتراضات المسبقة أو النظريات العلمية الجاهزة.

تطورت هذه المدرسة على يد الفيلسوف الألماني (إدموند هوسرل) واستمرت مع فلاسفة آخرين من أمثال: موريس ميرلو بونتي، مارتن هايدغر، وجان بول سارتر.

الظاهراتية: التواصل والحياة الملموسة

تقدم المدرسة الظاهراتية في سياق التواصل والحياة الملموسة مقاربة تركز على التجارب الحية للأفراد أثناء تفاعلهم مع العالم ومع الآخرين، ويتم تحليل هذه التجارب لفهم كيفية بناء المعنى في الحياة اليومية.

الأفكار الرئيسية التي ترتبط بالتواصل والحياة الملموسة:

1/التواصل ظاهرة عينية: بالنسبة للظاهراتية التواصل ليس فقط نقل للرسائل بل هو تجربة حيَة تشكَل من خلالها الذات علاقاتها مع الآخرين ومع العالم ويتم التركيز على اللغة والإيماءات والسياقات التي تضفي معنى على العملية الاتصالية.

2/ الحياة اليومية كإطار مرجعي: ينصب اهتمام الظاهراتية على الحياة اليومية باعتبارها "العالم المعيش" lebenswelt هذا المصطلح وضعه الفيلسوف (هوسرل) ويستخدم للإشارة إلى العالم الذي يتم اختباره مباشرة دون وساطة مفاهيمية أو علمية (يشير العالم المعيش إلى العالم الذي يكون

بديهيا وطبيعيا بالنسبة لنا حيث نتفاعل مع الأشخاص والأشياء بناء على خبرتنا مباشرة ، إنه ليس العالم الذي تدرسه العلوم أو النظريات التجريدية بل هو العالم كما يظهر لنا في تجربتنا الحيَة مليئ بالمشاعر والمعاني والعلاقات (مثال:عندما نشاهد غروب الشمس في العالم المعيش نشعر بجمال اللحظة ونربطها بالمشاعر والذكريات أمَا في العالم العلمي يتم تحليل غروب الشمس من حيث الطيف الضوئي والعمليات الفيزيائية والزوايا الفلكية).

ومن خلال مصطلح "العالم المعيش" أراد (هوسيرل) أن يعيد التركيز إلى الخبرة الحيَة التي تعتبر الأساس لكل فهم علمي وتوصَل إلى أنَ العالم العلمي يعتمد في النهاية على العالم المعيش لأنَه ينطلق من التجربة الإنسانية التي تعطي المعنى للأشياء.

3/ الجسد والتجربة الحسيَة: ركز (ميرلو بونتي) على الجسد باعتباره وسيلة للتواصل والتفاعل مع العالم فالجسد ليس مجرد أداة فيزيائية بل يحمل خبرات ومعان تتجسد في التواصل مع الآخرين.

4/ التفاعل الإنساني: التفاعل بين الأشخاص يدرس من خلال كيفية إدراكهم لبعضهم البعض وكيفية تشكَل الفهم المشترك l'intersubjectivité هذا الفهم هو أساس التواصل الفعال في الظاهراتية.

في الظاهراتية مفهوم l'intersubjectivité يشير إلى العلاقة المتبادلة بين الذوات (جمع ذات) المختلفة وكيف يمكن للأفراد أن يتشاركوا عالما واحدا رغم أنهم يعون هذا العالم من منظور ذاتي خاص بكل منهم.

المفهوم l'intersubjectivité محوري في فهم التجربة الإنسانية المشتركة يفسَره (هوسيرل) منطلقا من "الذات" أو الأنا كمرجع أساسي للمعرفة والوعي، لكن العالم لا يمكن أن يكون فرديا لهذا هناك حاجة إلى الاعتراف بوجود "الآخر" ولكي يتشارك الأفراد عالما مشتركا يجب أن يكون هناك تداخل ذاتي ويتحقق هذا التداخل من خلال ما أسماه (هوسيرل) "التقمَص" حيث تتصور الذات الآخر ليس كشيء موضوعي فقط بل كذات لها وعي وتجربة داخلية مماثلة. .

5/ الوجود والزمنية: الوجود عند (هوسيرل) يفهم من خلال التجربة الواعية أي أنَ العالم يوجد فقط بقدر ما يختبر ويدرك من قبل الوعي ، ويركز (هوسيرل) على العلاقة بين الذات والعالم وكيفية

إعطاء العالم معناه من خلال الفعل الإدراكي كما يؤكَد أنَ إدراك وجود الآخر يعزز لدى الذات فهم الوجود كظاهرة مشتركة

بينما يفسر (هايدغر) الوجود من خلال مايسميه الكينونة وهي هنا تعني الوجود البشري، والكينونة ليست كائنا جامدا بل هي عملية ديناميكية تفهم من خلال علاقتها بالعالم.

والحياة الملموسة تفهم من خلال علاقة الإنسان بالزمن وفي التواصل يتجلى هذا في كيفية ارتباط الماضي والحاضر والمستقبل في عملية بناء المعنى فبالنسبة ل(هوسرل) الزمن هو بعد أساسي للوعي ويتجلى من خلال ثلاث لحظات (الاحتفاظ وهو الوعي باللحظة الماضية/ الانطباع وهو الوعي باللحظة الحاضرة/ والتوقَع وهو الوعي باللحظة المستقبلية) بينما يرى (هايدغر) أنَ الزمنية هي البنية الاساسية لفهم الكينونة ويرى بأنَ الإنسان يعيش وجوده في أفق زمني يشمل الماضي (التراث) والحاضر (العيش الآني) والمستقبل (الإمكانات والغايات)

في الظاهراتية الوجود والزمنية مفهومان مترابطان فالوجود يفهم من خلال الزمن والزمن هو البعد الأساسي لتجربة الإنسان في هذا العالم.

العالم المعيش في الدراسات الثقافية:

في الدراسات الثقافية يعاد تفسير "العالم المعيش" لفهم الكيفية التي تشكَل بها الثقافة والممارسات اليومية حياة الأفراد المفهوم يساعد على استكشاف العلاقات بين الأفراد وثقافاتهموبين الممارسات اليومية والنظم الاجتماعية، وأهم الجوانب التي يعالجها المفهوم هي:

1/ التجارب اليومية: يركز المفهوم على الحياة اليومية كمساحة لتشكيل الهوية والثقافة وكيف تؤثر الممارسات اليومية كاللغة والعادات والطقوس على نظرة الأفراد للعالم.

2/ التفاعل الاجتماعي: ينظر إلى "العالم المعيش" كمجال ديناميكي للتفاعل بين الأفراد والجماعات حيث تتشكَل المعاني من خلال الممارسات الاجتماعية والتواصل.

3/ الثقافة كإطار: يبرز كيف يتم فهم "العالم المعيش" من خلال القيم الثقافية المشتركة والرموز والتقاليد التي تحدَد أطر التجربة الإنسانية.

تطبيقات العالم المعيش:

يستخدم مفهوم "العالم المعيش" في فهم الرموز الثقافية والمعاني المشتركة داخل مجتمع معيَن وكيف يدرك الأفر اد هذا العالم بناء على ثقافاتهم وخبراتهم كما يستخدم لفهم الحياة اليومية والتفاعل الاجتماعي.

السمات الأساسية للعالم المعيش:

1/ الطبيعية والديهية: في العالم المعيش نعيش حياة بطريقة طبيعية وبديهية دون التفكير بشكل تحليلي أو علمي في الأشياء من حولنا (عندما نتحدث مع شخص ما مثلا لا نفكر في قواعد اللغة والصوتيات بل في المعنى الذي نحصل عليه من الحوار)

2/ التجربة المباشرة: يفهم العالم المعيش من خلال الخبرات الحسيَة واليومية للفرد مثل سماع الأصوات ولمس الأشياء ورؤيتها وتذوَق الطعام.

3/ المعنى والقصدية: العالم المعيش مليئ بالمعاني لأنَ الفرد يعطي للأشياء من حوله تفسيرا معيَنا وقيما معيَنة

4/البعد الاجتماعي: العالم المعيش ليس فرديا بل جماعيا يتشارك فيه مجموعة من الأفراد المعاني والممارسات اليومية بشكل جماعي ويتفاعلون فيما بينهم.

5/ السياقية: العالم المعيش يتغير بتغير الظروف والسياقات الثقافية والاجتماعية وبتغير الزمن.

أمثلة على الحياة الملموسة والتواصل:

الحياة الملموسة والتواصل عنصران محوريان في فهم "العالم المعيش" ضمن الدراسات الثقافية والظاهراتية يمكن تفسيرهما من خلال أمثلة واقعية تساعد على توضيح المفهومين:

1/ الحياة الملموسة: وتعني التجارب اليومية العادية التي يعيشها الأفراد بشكل مباشر وهي مرتبطة بالعادات والممارسات والتفاعلات التي تشكَل حياة الفرد في سياقه الاجتماعي والثقافي

أمثلة:

. إعداد الطعام: تجربة إعداد الطعام ليست مجرد نشاط فيزيائي بل تعبَر عن القيم الثقافية والتقاليد والعلاقات الاجتماعية (إعداد وجبة تقليدية في رمضان مثلا يعبَر عن الروابط العائلية والإنتماء الديني والثقافي ويعزَز الحميمية الاجتماعية).

. ارتداء الملابس التقليدية: اختيار الملابس التقليدية لارتدائها في المناسبات يتجاوز الحاجة الوظيفية (ستر الجسد) ليشمل القيم الثقافية والجمالية التي يعيشها الفرد بشكل يومي.

. الذهاب إلى السوق المحلي: عند الذهاب إلى السوق يتم تبادل السلع بين البائع والمشتري ويتم أيضا تبادل المعاني الثقافية مثل اللغة المحلية والطقوس الاجتماعية.

2/ التواصل: يشير إلى الوسائل التي يتم من خلالها تبادل المعاني والمعلومات بين الأفراد وهو نوعان مباشر (وجها لوجه) وغير مباشر (عبر وسائل الإعلام أو الرموز الثقافية).

أمثلة:

. المحادثات اليومية: من خلال المحادثات اليومية يتشارك الأفراد الخبرات والمشاعر، وتعكس لغة الجسد ونبرة الصوت العلاقات الاجتماعية والثقافية.

. التواصل في المناسبات الاجتماعية: في حفلات الزفاف التقليدية يحدث التواصل عبر الكلمات (التهاني) وعبر الرموز الثقافية (اللباس / الموسيقى) وهذا النوع من التواصل يعزَز الروابط الاجتماعية.

. استخدام وسائل التواصل الاجتماعي: مؤخرا أصبحت الكتابة والنشر عبر وسائل التواصل الاجتماعي شكلا من أشكال التواصل المعيش (عندما يشارك شخص صورة وجبة أعدَها بنفسه أو يكتب عن تجربة سفر فإنَه يتواصل مع الآخرين حول معاني وقيم مرتبطة بحياته اليومية).

. استخدام المساحات الحضرية كوسيلة للتواصل: المساحات الحضرية ليست مجرَد أماكن عادية، إنَها حيزات اجتماعية وثقافية تشكَل العلاقات بين الناس وتوفر فرصا للتفاعل، فالحدائق العامة مثلا توفَر مساحة للإسترخاء والترفيه لكنها أيضا فضاء لتكوين علاقات اجتماعية بين الأصدقاء وأفراد العائلة، والمقاهي والمطاعم مثلا ليست أماكن للأكل فقط بل تستخدم لإجراء محادثات بين الأصدقاء وأفراد العائلة ولتعزيز الروابط الشخصية.